يستوي أو ينكسر ثم يقرأ مساره من جديد، فالتجربة رغم كل أبعادها لا تزول حتى في لحظة الهزيمة لأن «رمادها» يظل شاهداً ودرساً ومسافة بين بداية لا تعرف النهاية: «النضج لن يسبق التجربة. كأيّ مثال، كأي استواء» (ص ١٢٩).

يستعيد الوعي حدوده في التجربة، وفي التجربة يتكوّن، وفي رمادها يقرأ أوهامه الأولى ويدفنها، وينبعث فيه وعي جديد لم يكن ممكناً دون عثار التجربة. عن تجربة الفلسطيني وعثارها، وعن طموح الفلسطيني وانكساره، كتبت سحر خليفة، وطرحت إشكالية روائية أصيلة. والسؤال هنا: هل وافق المعنى المبنى في رواية سحر، وهل وجدت الاشكالية معادلها الروائي؟

قلنا – منذ البداية – إن سحر خليفة قد وصلت إلى أسلوب روائي أكثر تكاملاً واتساقاً في «عباد الشمس»، وأقامت هذا الأسلوب على لغة جميلة بل متألقة في بعض السطور. مع ذلك، نستدرك ونقول: إن الرواية هي جملة علاقات ينسجها الاسلوب في لغته، دون أن يعني ذلك أن العلاقة الروائية هي الأسلوب، إذ أن العلاقة لا تساوي الأسلوب الذي كتبها بل تأخذ في علاقتها معه مكان الأولوية. لهذا نقول: إن الاشكالية الروائية في عمل سحر لم تصل إلى حدودها الممكنة، بل أضاعت أجزاء منها في شكل بناء الرواية. لماذا هذا الحكم؟ قبل الإجابة، ومن أجلها، نذكر بما يلي: العمل الروائي جملة علاقات متداخلة تعطي في النهاية معنى موحداً، أو: جملة علاقات تتداخل بشكل معين يؤدي في النهاية إلى توحيد المعنى، وهذا يعني أن العلاقة الروائية لا تفهم إلا في علاقتها مع العلاقات الروائية الأخرى، أي من خلال وظيفتها في إنتاج معنى معين يكمّل معنى العلاقات الأخرى ويكتمل بها، وعندما تحيد العلاقة الروائية في المعنى الذي تنتجه عن المعنى العام للرواية فإنها تصبح نافلة، وتفقد وظيفتها. لذلك فإن كل علاقة روائية لا نقرأ على ضوئها الخاص بها، بل نقرأ في ضوء جملة العلاقات التي تشكّل الوحدة الروائية.

إذا سحبنا رواية سحر إلى دائرة الحكم السابق نجد، أن كاتبة «الصبار» قد أرجعت الاشكالية الروائية إلى اشكاليتين لا تتفقان بالضرورة، وخلطت في هذا الارجاع بين الجوهري والعارض، وبين المركزي والهامشي، أي ان الكاتبة لم تحقق وحدة المعنى في الرواية. وعندها نسأل: ما هي الاشكالية الحقيقية في الرواية، ولماذا تصبح حاضرة – غائبة؟

قلنا إن إشكالية الرواية هي: استحالة التحقق الإنساني في وطن محتل. لكن سحر تضيف إليها اشكالية جديدة – نافلة: وضع المرأة في المجتمع ومسار تحررها. الاعتراض هنا ليس على سؤال المرأة، بل على تحويل هذا السؤال إلى إشكالية جديدة ومستقلة في الرواية توازي الاشكالية الأولى ولا تلتقي بها إلا أحياناً: «شخصية سعدية»، وقد تتطاول الموازاة حتى يظن القارىء أن سحر «تدمج» روايتين في رواية أو تقسم روايتها «الأولى» إلى روايتين منفصلتين.

نقرأ في «عباد الشمس» رواية سحر الأولى: «لم نعد جواري لكم». وإذا كانت الكاتبة تستعيد «موضوعها» في وعي جديد، فإن هذا الوعي وتطوره الأكيد لم يلغ «النزعة النسوية»